الإسلامو فوبيا أم فوبيا الإسلام

الأستاذة: فاطمة سوالمي

أستاذة مؤقتة بجامعة الأمير

عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإسلامو فوبيا أو الخوف المرضي من الإسلام هي حالة لا شعورية مترسبة ومكبوتة في اللاشعور الجماعي للإنسان الغربي منذ القديم، وتتحول إلى الوعي المتيقظ بين الحين والآخر متخذة أشكالا مختلفة وصورا متباينة للتعبير عن تلك الرواسب والمكبوتات.

فما هي طبيعة تلك الرواسب والمكبوتات؟ وكيف تشكلت؟ ومن المسؤول عن انتقالها إلى منطقة الوعي المتيقظ؟

والإسلامو فوبيا أو العداء اتجاه الإسلام ليس بالأمر الخفي الذي يستدعي منا جهودا للكشف عنه وإبرازه، بل هو مشخص بذاته وظاهر للعيان، وعليه، فالعمل الذي أردنا القيام به هو الغوص في العوامل التي شكلت هذه القراءة الغربية للإسلام قديما وحديثا، ومحاولة تفكيك عناصرها، وذلك بالاعتماد على أدلة دينية وتاريخية وسياسية وفلسفية.

أولا: تعريف الإسلامو فوبيا:

الإسلامو فوبيا هو مصطلح حديث أطلقه الغرب للتعبير عن إحساسه تجاه الإسلام، وقد كثر عنه الحديث في الآونة الأخيرة، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001.

والإسلامو فوبيا (Islamo Phobia) هي كلمة إنجليزية مركبة من مقطعين اثنين هما: الإسلام- فوبيا.

الإسلام: هي الديانة التي يؤمن بها معظم العرب وغالبية سكان الشرق، ففي أدبيات الغرب التي تعالج علاقة الإسلام بالغرب، نجد أن الغرب لا يفرق بين العرب والإسلام والشرق فكلها تعبر عن الديانة التي جاء بها محمد ρ.

فوبيا : هي مصطلح نفسي وتعني الخوف المرضي أو الرهبة أو الرُهاب، وهو خوف مرضي - مبالغ فيه- من نوع من المثيرات والأوضاع وأنواعه كثيرة كالخوف من بعض الحشرات ومن الأماكن

العالية[1].

والكلمة في اللغة الإغريقية تعني: الخوف المؤلم والخوافات الشائعة –التي دعاها فرويد بالخوفات العالمية (Universal - Phobias)–، هي التي تثير أعلى المخاوف وتثير القلق عند معظم الناس مثل الثعابين إلا أن هناك نوعا أخرا من الخوافات وهي الني تتضمن الأشياء التي لا تحدث الخوف عادة عند الناس العاديين، مثل: الخوف من القطط[2].

والخوف في اللغة: هو توقع مكروه عن إمارة مضنونة أو معلومة وضدده الأمن[3].

والخيفة هي الحالة التي عليها الإنسان من الخوف، قال تعالى: {فأوجس خيفة موس} [طه: 67]

.

ويدل الخوف على انفعال في النفس وهو شعور فطري ينبع من داخل الإنسان تجاه الأخطار التي تهدد حياته.

وعند ترجمة كلمة (Islamo phobia) تصبح الإسلام الخوف المرضي، وعليه فالترجمة الصحيحة هي فوبيا الإسلام؛ أي الخوف المرضي من الإسلام أو عقدة الخوف من الإسلام.

أما المعنى الاصطلاحي لفوبيا الإسلام، فهي الصورة القاتمة التي سعى الغرب إلى التبشير بها لدى شعوبه من خلال آلته الإعلامية، التي تصور الإسلام على أنه دين بربري، يدين به جماعة من البدائيين البرابرة، وعليه تدعو الغرب إلى الحيطة والحذر من هذا الدين.

فما هي الأسباب والدوافع التي جعلت الغرب يتوجس خيفة من الإسلام ويستسلم لحالة من الرعب والفزع أفقدته القابلية للتمييز بين الخطأ والصواب؟

ثانيا: أسباب ومظاهر الإسلامو فوبيا في الماضي:

هناك جملة من الأسباب اجتمعت وتفاعلت مع بعضها البعض، أدت إلى سيطرة حالة الإسلامو فوبيا على نفسية الإنسان الغربي قديما وحديثا.

1–أسبابها: ويأتي في مقدمتها

أ–طبيعة العقيدة الإسلامية: لقد جاء الإسلام ليصحح الانحراف الذي أصاب عقيدة الألوهية في كل من اليهودية والمسيحية، من خلال إلغاء صورة الإله الذي ينفعل ويغضب وينحاز في التوراة وإلغاء صورة الإله وغبنه في المسيحية.

إن القرآن الكريم يقرر منذ البدء عقيدة بسيطة واضحة في متناول كل العقول، الله واحد لا شريك له خالق الكون والإنسان، ليس كمثله شيء، لقوله تعالى: {**قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد**} [الإخلاص: 1-4].

فظهر الإسلام بذلك في صورة الدين المناوئ والمعارض للمعتقدات الدينية الموجودة آنذاك، الأمر الذي جعل رجال الدين يشعرون بالخوف والخطر من هذا الوافد الجديد، لكونه «... وضع نفسه من ناحية أخرى في خندق مضاد متعارض تماما مع التقاليد الدينية المذكورة، وذلك من خلال تعميم مطلق غير محدد لهذا التوحيد»(4).

ولم يكتف الإسلام بدور المنتقد والمصحح لتلك العقائد، بل تعداه إلى الرفض والإلغاء حينما أعلن في بيان واضح وصريح بأن كل الأديان ماعدا الإسلام باطلة، لقوله تعالى: {**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**} [آل عمران: 85]، وقوله جلّ وعلا أيضا: {**ورضيت لكم الإسلام دينا**} [المائدة: 3].

ب–سرعة انتشار الإسلام: ظهر الإسلام في بداية القرن السابق للميلاد، وسط مجموعة من الديانات والملل التي كانت تشكل في مجموعها البيئة الدينية للمجتمع العربي آنذاك.

فاليهودية انتشرت في شمال الحجاز واليمن، وفي منطقة يثرب (المدينة)، ابتداء من تيماء، وضير وفدك ووادي القرى، وقد اعتنقت بعض القبائل العربية الديانة اليهودية بحكم مجاورتهم لليهود في تلك المناطق.

أما المسيحية فقد وجدت في الجزيرة العربية بفضل التأثير الذي مارسته ثلاثة مراكز مسيحية مجاورة هي: سوريا في الشمال الغربي، والعراق في الشمال الشرقي، والحبشة في الغرب عن طريق البحر الأحمر، وفي الجنوب عن طريق اليمن(5).

وقد أسفر هذا التأثير عن اعتناق عدة قبائل عربية للمسيحية كقبيلة بكر وتقلب وربيعة وبهراء وأهل الحيرة، كما اعتنقها بعض مشاهير العرب أمثال أرباب بنو رئاب من عبد القيس، وعدي بن زيد العبادي، وورقة ابن نوفل، وعبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر(6).

وطائفة من العرب عبدت الكواكب والنجوم كقبيلة كنانة التي كانت تعبد القمر، وجرهم التي تعبد المشتري وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعر، كما جاء ذكره في القرآن الكريم {**وأنه هو رب الشعرى**} [النجم: 49].

كما عرف العرب أيضا عبادة النار عن طريق الفرس، وإن كانوا فئات قليلة توزعت بين الحيرة واليمن والبحرين، وقد أطلق عليهم اسم المجوس بسبب تعظيمهم للنار لأنها في اعتقادهم هي السبيل لنجاتهم منها في الآخرة(7).

لقد استطاع الدين الجديد أن يجد له مكانا ضمن الخارطة الدينية للمجتمع العربي ولم يكتف بهذا، بل راح يغزو مناطق نفوذ تلك الملل ويستولي على قلوب أتباعها حتى دانت له كل المنطقة العربية في مدة زمنية قصيرة أو كما قال نابليون بونابرت: «لقد فتح المسلمون نصف العالم في نصف قرن»(8).

تلك الانتصارات التي حققها الإسلام على حساب الديانات الأخرى و خاصة المسيحية افقد الغرب المسيحي صوابه وجعله يعيش حالة من الخوف و الفزع «ومن هنا بدا الصراع بين الغرب المسيحي و الشرق الإسلامي، فالأول كان يرغب في البقاء محافظا على قوته و تواجده و نفوذه والثاني كان يسعى لنشر رسالته وتعميم دينه وبسط سلطته و منافسة غيره»(9).

ج–الخوف على المسيحية: تميزت نظرة الغرب المسيحي إلى الإسلام باتخاذ موقفين اثنين:

الموقف الأول: موقف الإعجاب بالتقدم والتفوق الذي حققه المسلمون الفاتحون في الأندلس ذلك التفوق الذي فاقوا به فلاسفة اليونان وعباقرة الرومان.

الموقف الثاني: موقف الخوف من المنظومة المعرفية التي حكمت نشأة هذه الحضارة وتطورها والتي جذبت إليها أنظار العالم الغربي المسيحي، وقد نقل لنا الباحث الغربي أليكسي جورافيسكي نصا يصف لنا الخوف والقلق الذي سبّبه انفتاح الأرووبيين على الحضارة الإسلامية بالأندلس بالنسبة لرجال الكنيسة يقول: «اشتكى ألفارا أسقف قرطبة من كون المسيحيين الشباب يأخذون من الآداب العربية أكثر مما يأخذونه من اللاتينية، ويقرأون الأشعار والحكايات العربية، ويدرسون مؤلفات الفلسفة واللاهوتيين العرب، بينما يتجاهلون تماما التعليمات والشروحات اللاتينية على الكتاب المقدس»(10).

أما المستشرق ماكسيم رودينسون فقد عزى حالة الإسلام فوبيا التي سيطرت على العالم الغرب آنذاك، إلى خصوصيات الحدث النبوي حيث يقول: «كان المسلمون خطرا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلة، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بيان الوحدة الروحية للغرب، ونموذجا حضاريا يمتاز بتفوقه وبحركته الإبداعية المتسارعة، وبقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب، إذ أنه وفي مواجهة تقدم هذا الأنموذج عبّر الغرب عن شعور عام وبالاندهاش أمام الإسلام وبدا له وكأنه خطرا على المسيحية»(11).

وما زاد الأمر تعقيدا بالنسبة للمسيحية هو الدعوة التي تبناها الإسلام و هي كونه خطاب موجها لكافة البشر في حين أن الاعتقاد السائد في المسيحية هو أنها الرسالة الخاتمة و ان المسيح هو آخر الأنبياء فلا نبوة بعد

المسيح «فهي تعتقد أن الهدف من إرسال الأنبياء و عقائدهم منذ بدء الخليقة ليس سوى تمهيدا تدريجي لأجل بلوغ ذروة التاريخ الكوني المتمثل بالتجسيد الإلهي في شخص المسيح»[12]، الأمر الذي جعل الكنيسة تنظر إلى الإسلام على أنه كفر وإلحاد، يجب التصدي له ومواجهته بكل الوسائل الممكنة.

كانت تلك في رأينا هي الدوافع التي جعلت العالم الغربي يصاب بحالة من الخوف والفزع والرعب من الإسلام.

2-مظاهرها:

وقد تمثلت مظاهر هذا الخوف في التصدي للإسلام من طريقين، طريق المواجهة المباشرة، ممثلا في الحروب الصليبية، وطريق المواجهة غير المباشرة ممثلا في الاستشراق.

-**الحروب الصليبية:** هي أولى المحطات التي انتقلت خلالها حالة الإسلام فوبيا إلى الوعي المتيقض، فأصبح العقل الغربي واعيا بوجودها مدركا لخطورتها.

والحروب الصليبية هو مصطلح يشير إلى جملة المواجهات العسكرية التي تمت بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، ابتداء من سنة 1095 إلى 1291م.

ويرى معظم الباحثين الغربيين أن الهدف من هذه الحملة الغربية الشرسة هو تحرير الأرض المقدسة واسترجاع كنيسة القيامة من أيدي المسلمين الذين نسجت حولهم العديد من الحكايات المغرضة والحاقدة، ولذلك جعلت الصليب شعارا لها[13].

إن الضغط على العامل الديني بقوة واعتبار الحرب التي دارت في بلاد المشرق بين الغرب المسييحي والشرق الإسلامي هي حرب دينية بين الإسلام والمسيحية، فيه مغالطة للتاريخ وتضليل للحقائق وهو ما اعترف به بعض المؤرخين الغربيين الذين رأوا بأن الصليب لم يكن الغرض منه سوى استمالة لعواطف العامة لينظموا إلى صفوف المحاربين ولذلك «كان اتجاه البابوية إلى المعدمين من عبيد الأرض الأقنان والمساكين جنبا إلى جنب مع أمراء الإقطاع وملوك أوروبا للزحف على المشرق الإسلامي تحت عباءة الصليب»[14].

ويصف أحد المؤرخين الغربيين حال هؤلاء المتطوعين بأنه «لم يكن لديهم ما يدعوهم من الخوف من الموت ومن حرب المسلمين، لأنهم كانوا في حال أقرب من الموت فعلا وكان لسان حالهم إنهم بدلا من أن يموتوا على أرضهم محملين بما ارتكبوه من ذنوب، فمن الأفضل لهم الموت في حرب مقدسة تغفر فيها ذنوبهم ويدخلون الجنة»[15].

لقد استغلت البابوية الأوضاع السيئة للمجتمعات الغربية إبان القرون الوسطى وراحت تغريهم بنعيم

الجنة طمعا في نعيم الدنيا، التي تراءى لهم من بلاد الشرق، ولذلك يصف البعض هذه الحروب بأنها حروب استعمارية توسعية[16] ولم يكن الدين سوى ستارٍ اختبأ وراءه المشروع الصليبي.

وبغض النظر عن الهزيمة النكراء التي لحقت بالغرب المسيحي من جراء تلك الحروب الصليبية، فقد استفاد من هذه الحروب بطريق آخر كما عبر عن ذلك المفكر صبحي الصالح بقوله: «ومن العجيب أنه قد كان لتلك الحروب الصليبية –على قبحها وشؤمها– نتائج إيجابية طيبة في توجيه الفكر المسيحي نحو تعلم الدعوى التبشيرية السلمية عن طريق الحجة والإقناع»[17].

كما أدت تلك الحروب إلى الاحتكاك الحضاري الذي أدى بدوره إلى أن استيقظ الأوروبيون من سباتهم وتفتحت عيونهم على الحضارة العربية الإسلامية العملاقة، وبدأ في أوربا ما أطلق عليه البعض تعبير "النهضة الوسيطة"[18].

-**الاستشراق**: الاستشراق هو نوع من المعرفة الغربية تخصصت في دراسة الشرق من حيث ديانته وحضارته وعاداته وتقاليده، ولقد انتهج الاستشراق في نشأته منهجا عدائيا تجاه الإسلام والمسلمين، وهذا باعتراف البعض من رجالاته أمثال المستشرق الفرنسي "إيميل درمنغام" (Emille Dermenghem) من خلال كتابه "حياة محمد"، حينما قال: «يجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف، فمن البزنطيين من أوقروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة دراسته، ولم يحارب الكتاب النظامون مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب، فقد زعموا بأن محمدا لص نياق، وزعموه متهالكا على اللهو، وزعموه ساحرا،...، بل زعموه قسا رومانيا مغيضا، إذ لم ينتخب لكرسي البابوية»[19].

لقد عمل الاستشراق منذ نشأته على التأسيس لخطاب غربي يصف الشعوب الإسلامية بالدونية، في مقابل فوقية الشعوب الغربية، ويصف العقل المسلم بالسجين والمكبل بقيود الوحي في مقابل العقل الغربي الذي يتمتع بكامل الحرية والسبب في ذلك –في اعتقادهم– أن العقل المسلم هو وليد الشرق، الذي حاز على المركزية الدينية باعتباره مهبط الوحي والأديان ولذلك فهو يمتاز بالتأمل والتفكير الجزئي والميل إلى الزهد والتأثر بالأوهام والخرفات، بينما العقل الغربي، فهو وليد الغرب الذي حاز على المركزية العقلية بسبب رصيده الفلسفي العقلي.

وذلك ما يؤكده رينان (Renan) بقوله: «ليس العرق السامي هو ما ينبغي أن نطالبه بدروس في الفلسفة، ومن غرائب النصيب ألا ينتج هذا العرق الذي استطاع أن يطبع على بدائه الدينية أسمى سمات القوة، أقل ما يكون من بواكير خاصة به في حقل الفلسفة، ولم تكن الفلسفة لدى الساميين غير استعارة خارجية صرفة، خالية من كبير خصب»[20].

تلك إذا هي الثنائية الضدية التي صاغها الخطاب الاستشراقي (شرق، غرب/ إسلام، مسيحية)، واستطاع تثبيتها في مخيلة الإنسان الغربي بحيث لم يسلم منها حتى المستشرقين المجددين ذوي الاتجاه العلمي، وهذا باعترافهم «لقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا، والنقمة على الإسلام بسبب الحروب الصليبية واستيلاء المسلمين على الآستانا، وقوة تأثير مدنيتهم السامية الساحقة، حتى أصبحت تلك النقمة جزءا من نظامنا وكانت تلك الأوهام متأصلة فينا»(21).

ولقد عانى من هذه الثنائية كلا الطرفين، فبالنسبة للعالم الإسلامي فقد اصدر الفكر الاستشراقي بشأنه أحكاما جائرة وظالمة صورت الإنسان العربي المسلم بأبشع الصور فهو متوحش سفاك للدماء ومتخلف ولا زال الغرب ينظر إلينا من خلال هذه الصورة إلى الآن.

أما بالنسبة للإنسان الغربي فإن الصورة التي قدمها له الاستشراق عن الإسلام وعن المسلمين قد تمكنت من حرمانه من معرفة الحق والاهتداء إلى طريق الصواب، وهنا تكمن خطورة الاستشراق إذ أنه المصدر الوحيد الذي استقى منه الغرب معلوماته بخصوص الإسلام.

فإنّ كان لحالة العداء والكراهية التي عاشها الغرب في الماضي لها ما يبررها دينيا وتاريخيا.

فما هي مبررات استمرار هذه المواد والمكبوتات في مخيلة الإنسان الغربي، في زمن لم يعد فيه للدين مكانة لدى الإنسان الغربي؟

ثالثا–أسباب ومظاهر الإسلامو فوبيا المعاصرة:

1–الأسباب: ويمكن تلخيص الأسباب المعاصرة لظهور حالة الإسلامو فوبيا فيمايلي:

أ–التمركز حول الذات: هي نزعة تدفع بالغرب إلى إلغاء الآخر وعدم الاعتراف به وهي نزعة استعلائية ترتكز على عدة فلسفات غربية، محورها النزاع والصراع كسبيل وحيد للتغيير والتقدم والتطور، بدءا بجدلية هيجل، ومرورا بالتطور عند داروين ووصولا إلى الصراع الطبقي لدى ماركس، والفائز في هذا التنازع هو الأنسب والأصلح للحياة ولقيادة المجتمع الدولي «ولتحديد مكانة الآخرين والحكم عليم لصالح تاريخه وغاياته وقيمه»(22).

وفي إطار حالة الانتصار والفوز الذي حققتها الذات الغربية على حساب المعسكر الشيوعي راحت تعيد ترتيب البيت الدولي بما يخدم تصوّرها وقيّمها وبما يحقق مصالحها وغاياتها، باعتبارها المركز والقطب الوحيد في العالم لتنتقل فيما بعد إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة البحث عن عدو جديد «ليضمن لذاته التنافس الخارجي والتماسك الداخلي، لأنّ النزاع والصدام هو الذي يوفر حوافز التحدي للتقدم

والتطور»[23].

فمن يكون هذا العدو القادم؟ وما هي موصفاته؟ وأين ستجرى منازلاته؟

لقد توصل خطاب المركزية الغربية المفعم بالأنا الأمريكية -عن طريق توظيفه للنخبة المثقفة- إلى تحديد هوية ومواصفات العدو الجديد من خلال إحيائه لمقولة صدام الحضارات التي تقول «بأن الاختلافات بين الحضارات اختلافات حقيقية وهامة وأن الوعي الحضاري آخذ في التزايد، وأن الصراع بين الحضارات سيحل محل الصراع الإيديولوجي وكافة الأشكال الأخرى للصراع كشكل كوني مهيمن للصراع»[24].

ولقد سعى صاحب هذه المقولة وهو صموئيل هنتنغتون إلى حصر الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية من خلال تدرجه من العام إلى الخاص، ففي بداية الأمر افترض حدوث صراعات ومواجهات بين الحضارة الغربية (الأورو- أمريكية) وبين الحضارات العالمية الأخرى كالحضارة الكونفوشستية والحضارة اليبانية والحضارة الإسلامية وحضارة بعض دول أمريكا اللاتينية[25]، لينتهي في الأخير إلى قناعة من أن الصراع سيكون بين الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية وهي ذات القناعة التي توصل إليها الغرب، فالإسلام هو الخطر الذي بات يتهدد الغرب فهو الإرهاب الذي يسعى لتدميره والقضاء عليه.

إن وصف الإسلام بالإرهاب لا يمكن اعتبارها إلا أنها إحدى حالات الإسلامو فوبيا، التي تعاود الظهور بين الحين والآخر، ولقد بلغت ذروتها هذه المرة من خلال القراءة التي أعطيت لهذا المنافس الجديد، فهو يختلف عن العدو الشيوعي السابق، الذي كانت لديه حدودا تضمه، وكان يسعى لتطوير الشعوب، ولكن وفق رؤية مغايرة، بينما الإرهاب أو الإسلام فليس لديهم البديل السياسي أو الاقتصادي، بل يملكون الحقد والكراهية التي تدفعهم إلى الموت في سبيل ترويع الغرب وإرهابه.

وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر لتنتقل الذات الغربية عبرها من التمركز حول نفسها إلى العالمية حينما «أجبرت العالم على تبني الطرح الغربي الأمريكي وعلى ضرورة التحالف مع أمريكا والتعاون معها، لاستئصال هذا الذي تسميه بالإرهاب..، لقد جعلت من الجميع عميلا لمخابراتها»[26]، وبرغم الخسائر البشرية والمادية التي تكبدتها أمريكا من جراء هذه الأحداث، إلا أنها تمكنت بطريق آخر من تحقيق نتائج باهرة، إذ تمكنت في ظرف وجيز من السيطرة على مناطق هامة من العالم الإسلامي كأفغانستان والعراق. إلا أن ما يعكر صفو هذا الانتصار هو مكان منازلة هذا العدو، فلقد تعود الغرب أن يخوض غمار الحرب خارج الديار وبعيدا عن الأهل والأحباب، يضيق للآخرين ألم ومرارة وقسوة الحرب، من خلال

عمليات القتل والتشريد التي يمارسها ضد هؤلاء الشعوب بينما ينعم شعبه برغد العيش وبالطمأنينة السلام.

فوضعت بذلك أحداث 11 من سبتمبر حدا لحالة الأمن والسلام التي نعم بها الغرب لفترات طويلة من الزمن، فكانت هذه الأحداث هي المثير التي استدعى عودة الإسلامو فوبيا من جديد وبشكل أعنف وأشد مما كانت عليه.

ب-تناقض النموذج القيمي: بلغت الذات الغربية أعلى سقف لها في تمركزها حول الذات، حينما نظرت إلى شعوب الشرق عامة، والشعوب الإسلامية خاصة على أنهم قطيع من البشر سوف يساق ويوجه إلى الوجهة التي يريدها الغرب له لا الوجهة التي يريدها هذا الشرق. فقامت بسحب التجربة الغربية لتطبيقها على الشرق الإسلامي دون مراعاة لأدنى خصوصية لهذه الشعوب، إلا أنها اصطدمت بحقيقة مؤلمة وهي عدم استجابة الشرق المتأخر لعملية التحديث والعصرنة التي وعده بها الغرب المتطور، وهي العملية التي بذل لأجلها جهودا مادية ومعنوية معتبرة.

وحينما بحثت -الذات الغربية- عن سبب هذا الإعراض وذلك الرفض من قبل الشرق توصلت إلى أن الدين هو الذي وقف في طريق تلك الجهود الرامية إلى تطوير الشرق وفق رؤية غربية، متجاهلة بذلك الفوارق البيئية والخصوصيات الثقافية لشعب يشغل الدين الحيز الأكبر في حياته. حينها ثارت ثائرة الغرب ضد هذا الدين وتساءل في نفسه كيف لجملة من الطقوس والشعائر أن تقف في وجه هذا الغرب المتمدن والعقلاني المتحضر ليجد أمامه الإجابة ماثلة وواضحة.

إن الدين الإسلامي -والذي وضع حسب التصنيف الهيجلي للأديان ضمن المراتب الأخيرة[27]-، قبل أن يكون طقوسا وشعائرا هو نظام حياة ومنهج سلوك، فالإسلام هو الحق والعدل والمساواة والبساطة وإنكار الذات وهذا باعتراف البعض منهم فهاهو جولد زيهر الذي عرف بعدائه الشديد للإسلام، يقر في إحدى كتاباته: «إذا أردنا الإنصاف فينبغي أن نؤمن بأن في مذهب الإسلام قوة صالحة توجه الإنسان نحو الخير وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية حياة أخلاقية لا غبار عليها، ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع المخلوقات والوفاء بالعهود والمحبة والإخلاص وكف الغرائز الأنانية[28].

أما برناردشو فيقول: «إني كنت ولا أزال أحتفظ للإسلام في نفسي بمكانة سامية لحيويته ولأنه فيما أرى الدين الوحيد الذي يشتمل على جميع العناصر الضرورية التي تجعله مرنا يساير أحوال العالم في تطوراته فهو صالح لجميع الأمم وفق جميع العصور»[29].

وتلك المفاهيم بالطبع تمثل النقيض بالنسبة لمفاهيم الغرب وقيمه التي تكرس لنزعة الاستعلاء والتفوق

وتجاهل الآخر، الأمر الذي أهل الإسلام لأن يكون صاحب مشروع يدعو للنهوض الحضاري وللتحديث والتقدم، وفق معايير وقيم إسلامية أثبتت التجربة فعاليتها وملاءمتها للطبيعة البشرية مما جعل الغرب يشعر بالخوف والقلق، لأنّه يرى في النموذج القيمي الإسلامي نموذجا منافسا له يزاحمه في ميدان الانتشار وكسب الأتباع الذي يريد تخليصهم من هيمنة واستبداد الغرب(30).

ج-انتشار الإسلام في الغرب: لقد وقف الغرب مذهولا أمام ظاهرة انتشار الإسلام داخل المجتمعات الغربية، وهي الظاهرة التي وظف للحد منها إمكانات هائلة بدءا بالاستشراق ومرورا بالتنصير ووصولا إلى الحداثة. وفي كل مرة يتفنن الغرب في اختيار مقولاته بحسب الأغراض التي تمليها الظروف، فقبل فترة كنا نطالع في أدبيات الغرب بأن الإسلام دين يدعو للعنف وللإرهاب لأنه دين انتشر بالقوة والسيف، أما الآن، وبعد أحداث 11 من سبتمبر 2001، سرنا نقرأ بأن الإسلام هو الخطر الذي يتهدد الغرب، وأن الإسلام هو الإرهاب الذي يجب أن تتظافر كل الجهود الدولية والإقليمية لمحاربته.

وإذا كان الغرب ومن ورائه أمريكا هو الرابح الأكبر في تلك الأحداث التي وفرّت عليه الجهد - والوقت في احتلال مناطق هامة واستراتيجية من بلاد الإسلام، وإذا كان المسلمون هم الخاسر الأكبر بسبب اتهام الغرب لهم وبسبب تورط بعض المسلمين في هذه الأحداث، فإن الإسلام قد ربح الكثير ولكن من طريق آخر، فتلك الأحداث جعلت الشعوب الغربية توجه أنظارها باتجاه الإسلام يحاولون الاستفسار عن هذا الدين الذي يدفع بأبنائها إلى الموت في سبيله، فكانت النتيجة المفاجئة للغرب وهي اعتناق عدد كبير منهم الدين الإسلامي لأنهم تمكنوا من قراءته ومعرفته هذه المرة من غير واسطة الاستشراق الذي تولى مهمة تشويه الإسلام وتقديمه بتلك الصورة القاتمة للشعوب الغربية، وهي النتيجة التي أقلقت الغرب وأعادت لوعيه المتيقظ حالة الإسلامو فوبيا.

ولقد أفادت الإحصاءات الغربية بأن معدل انتشار الإسلام في تزايد مستمر برغم كل العوائق التي تحيط بهذا الدين، ففي الدراسة التي قامت بها وزارة الداخلية الفرنسية أن 3600 شخص يعتنقون الإسلام سنويا، وهناك توقعات بأن يمثل المسلمون ربع سكان فرنسا بحلول 2025، ومن جهة أخرى أفادت دراسة قام بها معهد جالوب لأبحاث الرأي العام بأمريكا أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة تجاوز 6 ملايين مسلم ليصبح الإسلام أحد أكبر الديانات الخمس في الولايات المتحدة الأمريكية.

وسواء كانت هذه الإحصاءات دقيقة أو مبالغ فيها فإن الأمر الأكيد أن الإسلام، ورغم كل حملات التشويه المغرضة يتقدم وينتشر بطريقة عجيبة ومخيفة للغرب.

وبدلا من أن يتوجه الغرب للبحث عن أسباب هذه الظاهرة ومن ثم الوصول لعلاجها -وهي

الطريقة التي اعتاد تلقينها للغير-، نراه قد سلك طريقا آخر لينفس به عما يعتريه من شعور وأحاسيس تجاه هذه الظاهرة، ولم يجد أمامه هذه المرة إلا الآلة الإعلامية ليعبر من خلالها عما يجول بخاطره بخصوص الإسلام والمسلمين، وهو يعتقد –مخطئا- بأنها الطريقة المثلى لعلاج هذه الظاهرة.

2–مظاهرها:

إذا كانت الحروب الصليبية والاستشراق قد وقف قديما وراء التصورات السيئة للإسلام، فمن يقف الآن وراء الصور المشوهة للإسلام والمسلمين اليوم؟

إن الذي يقف وراء تلك الصورة هو الخطاب الإعلامي الغربي، الذي انتقل من مهمة تقديم المعلومات والأخبار، إلى مهمة تشكيل الرأي العام الغربي وفق أجندة تملى عليه من طرق صناع القرار السياسي والاقتصادي والعسكري، وتكمن خطورة هذا الدور الجديد في تحول العالم إلى قرية كونية، بحيث يمكن تغطيتها من طرف المتفوق تقنيا وإعلاميا(31)، فيوجه هذه التغطية وفق الوجهة التي يريدها وبالكيفية التي يرغب بها.

ولقد تفنن الإعلام بأنواعه (المقروء، المسموع، المرئي) في نشر الخوف الهستيري من الإسلام وهي القضية التي اعتبرت بمثابة تهيئة للرأي العام الغربي عموما وللأمريكي خصوصا، حتى يتقبل فيما بعد التقتيل والتشريد الذي يمارس ضد المئات من المسلمين في العالم كأفغانستان والعراق والشيشان وفلسطين، باعتبارهم (متوحشون، وإرهابيون، وحاقدون) على الغرب بسبب تفوقه العلمي والتكنولوجي وإلا فكيف نفسر صمت العالم ومنظمات حقوق الإنسان أمام المذابح التي تقترف في حق الشعب الفلسطيني على مدى عقود من الزمن، في حين تقوم الدنيا بسبب حيوان مهدد بالانقراض.

إن الإنسان العربي البربري والمتخلف والإرهابي -فيما بعد-، هي الصورة النمطية للإنسان العربي في الإعلام الغربي، والصورة النمطية (Stereotype) في موسوعة علم النفس الاجتماعي هي «الشيء المكرر على نحو مضطرد على وتيرة واحدة لا تتغير ويسمى نمطا، والنمط يطلق على الصورة العقلية التي يشترك في حملها واعتناقها أفراد جماعة معينة»(32). وهكذا فإن الصورة النمطية التي يرسمها الإنسان لشخص ما يستقيها من الموروثات التي شكلت وعيه الثقافي دون الاهتمام بمدى مطابقة أو مخالفة الصورة النمطية للواقع والحقائق.

وتأكيدا لهذا التوجه ما درجت عليه وسائل الإعلام في عناوين الصحف والكتب والمجلات والتلفزيون والسينما والرسومات، وغيرها عند الحديث عن الإسلام والمسلمين ففي مجال السينما مثلا يقول

(جاك.ج.شاهين) (Jack G Shaheen) في كتابه "العربي الشرير أو كيف تشوه هوليوود شعبا" إن هذه الأفلام «تصور العرب على أنهم شيوخ ذو سمات كريهة يتسمون بالغدر والخيانة فيما يمتلك بعضهم ثروات طائلة ينفقون منها على ملذاتهم وشهواتهم»(33) ويواصل المؤلف قوله: «منذ منتصف الثمانينات يظهر على شاشات التلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية كل أسبوع ما بين 15 و 20 فيلما، تقدم العرب في صورة مبالغ في تشويهها من الصفات الإنسانية»(34).

وعن الاختراق اليهودي للسينما الأمريكية، قدم الكاتب اليهودي نيل جابلر (Nail Gabler) دراسة سنة 1988 بعنوان "الأمبراطورية التي تخصهم: كيف ابتدع اليهود هوليود"، حيث يقول: «إن اليهود أسسوا جميع الأستوديوهات الأمريكية السينمائية الكبرى، بما فيها صناعة السينما الأمريكية، متمثلة في كبرى الشركات العالمية مثل: كولومبيا ويونيفرسال، ومتروجو لدوين»(35).

وتكمن خطورة الخطاب الإعلامي الغربي في تقبل الرأي العام الغربي لكل آرائه وأفكاره.

فإذا اعتبرنا أن الإسلام فوبيا مرض ينبغي علاجه واقتنعنا بأن العلاج لهذا النوع من المرض النفسي هو إعطاء أفكار متصلة بما يخافون منه على أن يكون لهذه الأفكار واقع محسوس لديهم.

فإذا تمكنا من إيجاد النخبة المسلمة المثقفة -ذات النوايا الحسنة والرؤيا الواضحة-، والتي تتولى مهمة التصويب من خلال التعريف بالإسلام وتقديمه للغرب، فما السبيل لإيجاد الواقع الإسلامي الذي يتصل بتلك الأفكار المقدمة لهؤلاء عن الإسلام؟

هوامش:

(1) –فاخر عادل، معجم علم النفس- إنجليزي –فرنسي- عربي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص84.

(2) –رولان دورون، فرنسواز باروة، موسوعة علم النفس، ترجمة: فؤاد شاين، ط1، دار عويدات ، بيروت، 1997، ص818.

-جابر عبد الحميد جابر، علاء الدين كفافي، معجم علم النفس والطب النفسي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1993، ج6، ص2770.

(3) –ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص113.

(4) –أليكسي جورافيسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة: خلف محمد الجراد، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص39.

(5) –عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، شباب الجامعة، الإسكندرية، ج1، ص429.

(6) –المرجع نفسه، ص43.

(7) –محمد إبراهيم الفيومي، في الفكر الديني الجاهلي، ط3،دار المعارف، القاهرة، 1982، ص196-197.

(8) –الطيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه –خاصة في الجزائر-، دار المنابع، الجزائر العاصمة، 2004، ص53.

(9) –المرجع نفسه، ص54.

(10) –أليكسي جورافيسكي، الإسلام والمسيحية، مرجع سابق، ص45.

(11) –عمران الشيخ، الاستشراق والإديولوجيات أو أصول الإسلام في الموسوعة العالمية، حوليات الجزائر، جامعة الجزائر، ع2، 1988، ص73.

(12) - أليكسي جورافيسكي، الإسلام والمسيحية، مرجع سابق، ص69.

(13) –إنتوني بريدج، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، 1985، ص3.

(14) –عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا –من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية-، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص326.

(15) –المرجع نفسه، ص326.

(16) –المرجع نفسه، ص306.

(17) –صبحي صالح، الإسلام ومستقبل الحضارة، دار الشورى، ط2، بيروت، 1990، ص246.

(18) –شوقي عطاء الله الجمل، عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ أوربا الحديثة والمعاصرة، دار قتيبة، القاهرة، 1995، ص8.

(19) –إيميل درمينغام، حياة محمد، ترجمة: عادل زعيتر، ط2، دار إحياء الكتب العربية، 1949، ص75.

(20) –أرنيست رينان، ابن رشد والرشدية، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957، ص15-16.

(21) –جوستاف لوبون، حضارة العرب، ط4، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دت، ص50.

(22) –رجاء جارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد النمجيد بارودي، ط1، دار الإيمان، بيروت، 1983، ص175.

(23) –زكي ميلاد، تركي علي الربيعو الإسلام والغرب –الحاضرة والمستقبل-، ط1، داار الفكر، دمشق، 2001، ص112.

(24) –صموئيل بي. هانتيجتون، الإسلام والغرب، آفاق الصدام، ترجمة: مجدي شرشر، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995،ص60.

(25) –المرجع نفسه، ص62.

(26) –مصطفى سلوى، الخطاب الاستشراقي في أفق العولمة، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، وجدة، 2003، ص64.

(27) –عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية- إشكالية التكون والتمركز، مجلة الاجتهاد، بيروت، ع47-48، 2000، ص303.

(28) –جولد زيهر، العقيدة والشريعة والإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، دط، دار الرائد العربي، بيروت، 1910، ص29.

[29] –علي أحمد الجرجاوي، حكمة التشريع وفلسفته، دار الفكر، ج1، ص56.

[30] –زكي ميلاد، تركي علي الربيعو، الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص112-113.

[31] –مصطفى الدباغ، الإسلامو فوبيا –عقدة الخوف من الإسلام–، دار الفرقان، عمان، 1998، ص87.

[32] –المرجع نفسه، ص18.

[33] - جعفر عبد السلام، أحداث 11 سبتمبر 2001 وتداعياتها الدولية، ط1، القاهرة، 2002، ج1، ص146.

[34] -المرجع نفسه، ص146.

[35] - جعفر عبد السلام، أحداث 11 سبتمبر 2001 وتداعياتها الدولية، مرجع سابق، ج1، ص151.